

## أخلاقيات العلم فى الاسلام

الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة  
أستاذ مساعد بجامعة الأزهر القاهرة

الحمد لله الذى أوجد من عدم ، و علم بالقلم ، والصلاة والسلام من تمت برسالة النعم ، وتتم الأخلاق بأعلى مراتب الكرم ، بمناسبة مطلع القرن نبداً بما بدأ الله به حيث يقول الله تبارك و تعالى «اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم الآيات ١ - . وهذه الآيات الكريمة التى كانت أول ما نزل من القرآن تحمل فيها من المعانى ذلك المعنى العميق الذى يختص بالعلم . ولسنا نريد أن نشير ما يمكننا استخراجه فى هذا المجال ، بل نريد أن نشير الى ما يهمننا فى هذا البحث أن الاسلام كرسالة الالهية ، ودين ربانى يؤكد منذ البداية أن العلم نعمة من النعم العظمى التى يمن الله بها على عباده ، فينسبها الى نفسه جل شأنه فهو الذى علم بالقلم ، وهو الذى علم الانسان ما لم يعلم ، وهو بهذا يجعل الانسان حكماً وقيلاً ، وهادياً ومرشداً ، ودليلاً وقائداً ، وصلة وثيقة بين الانسان وربه ، وهو كذلك يعطى للعلم إطاره ، ويحدد له مبداه ، ويبين له غايته .

### المقصود بكلمة العلم»

ولعله ينبغى أن نبين المقصود بهذه الكلمة قبل أن نسترسل فى الحديث حتى لا يختلط الأمر على قارئه ، لأن هذه اللفظة العربية تستعمل بمعنى عام المعنى الذى تعينه الحضارة المادية الحديثة وتزيد عليه ، وكما يختلف مصطلح

بمعناه العربي عن اللفظة المقابلة له في اللغات الغربية ، كذلك يختلف كلمة العلم عما يقابلها من كلمات في هذه اللغات ، فلقد درجت هذه اللغات استعمال هاتين الكلمتين بطريقة تفصل بينهما ، وتحدد لكل ميدانه الذي يلزمه لا يتجاوزه أو يتعداه ، وقد يكون ذلك راجعا الى مفهوم الدين عندهم ، وعلوم كثيرة ذات جذور تاريخية ساعدت على ان يضعو العلم فى مقابل الدين ، اما الدين بطريقة ضمنية غير مباشرة أساسه العلمى ، وأن يسلبوا العلم كذلك وجهه الدينى ، وهذا المفهوم عندهم لا ينطبق على الاسلام كدين ، والعلم بناء على ذلك تلك الانفصالية التى رسمتها الحضارة الغربية الحديثة بين العلم والدين .

وهذا الاختلاف فى المفاهيم هو الذى يجعل من الضرورى أن نتحدث مقصودنا من كلمة العلم .

فالعلم كما هو فى الحضارة المسيحية قد حصر نفس فى دراسة العالم المحسوس الذى يخضع أو يمكن أن يخضع للتجارب والمشاهدة ، وتبع ذلك أنه أصبح لا يعتمد الا على الواقع الذى تدركه الحواس ، وأصبح بحيث ينبذ كل ما لا يخضع للتجارب والملاحظة والمشاهدة وينظر الى العقائد الغيبية باعتبارها أوهاما والى مقتضيات العواطف البشرية المختلفة باعتبار أنها مضللة تحول بين صاحبها وبين الوصول الى أحكام موضوعية محايدة .

وبهذا خرج العلم من اطار الدين وهيمنته وتوجيهه ، وكف يد الدين أى دين عن وضع مبادئه أو رسم حدوده أو تبیین أهدافه ووسائله ، وزعم أنه نال بذلك الحرية المطلقة التى لا بد منها لازدهاره وتقدمه ، ثم زعم أنه سوف يتوصل الى معرفة الحقيقة بغير أن يقع تحت تأثير خارجى أو غيبى لا يخضع للحس والتجربة والمشاهدة

وليس من مهمتنا فى هذا البحث أن نظهر أنه مثل فى ذلك كله ، فقد تكفلت بذلك بحوث علمية أخرى كثيرة .

وانما يهمننا أن العلم فى المحيط الاسلامى لم يتعرض لمثل هذا الانحراف فى الفهم والتحديد ، بل لعله تعرض للون آخر من التطرف فى ظروف تاريخية محدودة ، فأصبح ينظر اليه على أنه ما كان يتصل بالعلوم الدينية مباشرة من عقائد وتفسير وحديث وفقه وما يدور حولها من علوم ، لكن هذه النظرة الضيقة المتطرفة ، لم تسد فى المجتمع الاسلامى الا فى فترات الجمود والانكماش لمقتضيات وأسباب مختلفة .

ومع ذلك فالعلم فى الاسلام ليس هو ذلك العلم الذى يدرس مسائل الدين وحده ، وليس هو العلم المادى وحده ، بل هو أعم من كل منهما ، لذلك كانت وسائل تحصيله أعم من تلك الوسائل التى اعتمد عليها الآخرون من ملاحظة وتجربة واستنباط . يقول صاحب العقائد النفسية : ان أسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادقة ، والعقل ، و بين شارحه معنى العلم ، بأنه صفة يتجلى بها كل ما يمكن ذكره والتعبير عنه، ثم يقول: أنه ينبغى أن يحصل التجلى على الانكشاف التام الذى لا يشمل الظن ، لأن العلم عندهم مقابل الظن . (١) فنحن هنا أمام مجال فسيح للعلم ، وأما وسائله يتناسب مع اتساع المجال الذى ينشط فيه العلم .

ولهذا نجد أحد علماء المسلمين يقول : (٢) العلم الذى أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التى يدركها الانسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق من شىء ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة . «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، (الأعراف ١٨٥) ثم يقول : فالعلم فى الاسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم ، فهو أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى ان مدلول تعريف العلم كما هو فى

المصطلح الغربى **SCIENCE** هو بعض ما يطلق عليه لفظ العلم عند المؤلفين الاسلاميين ، فقد جاء حاشية البنانى على السعد أن أسماء العلوم المدونة تطلق على اوراق القواعد عن دليل كما تطلق على معلوماتها ، وهى القواعد التى يقوم عليها الدليل ، و على الملكة الحاصلة من ادراك القواعد مرة بعد أخرى ، أعنى ملكة ستحضرها متى أريد .

وحقق السيد الجرجانى ان العلم فى اطلاقه على الاوراث  
وحقق السيد الجرجانى أن العلم فى اطلاقه على الادراك يكون حقيقة لغوية . وفى غير ذلك اما حقيقة عرفية ، أو اصطلاحية ، أو مجاز مشهور (٣) .  
ومن الواضح أن كلمة القواعد وكلمة الدليل هنا مطلقة أعم من تلك التى يعتمد عليها العلم فى المصطلح الغربى ، ولذلك يمكن القول بأن اطلاق العلم على المفهوم الغربى يعتبر حقيقة عرفية أو اصطلاحية على حد تعبير السيد الجرجانى (٤) .

وللامام الغزالى فى هذا المجال سبب طويل يقول فى كتابه أحياء العلوم الدين تحت عنوان بيان العلم الذى هو فرض كفاية : أعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره الا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة الى الفرض الذى نحن بصدده .  
تنقسم الى : شرعية ، وغير شرعية .  
وأعنى بالشرعية : ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم و سلامه ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة .  
ثم يتحدث عن فرض الكفاية من هذه العلوم فيقول : اما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب ، اذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عن يقوم بها حرج اهل البلد ، واذا قام بها واحد نفى وسقط الفرض عن الآخرين .

فلا يتعجب من قولنا : ان الطلب والحساب من فرض الكفايات ، فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة . . . (٥) وقد بين قبل ذلك ما هو من فروض الاعيان مما يلزم كل فرد فرد من واجبات العبادات . وفي هذا النص يتبين بجلاء أن العلم بمعناه الغربي الحديث داخل في دائرة العلوم بمعناها الاسلامي ، بل بمعناها الديني في الاسلام حيث تعتبر من الفروض التي يفترضها الاسلام على أتباعه ، وان كانت على سبيل الكفاية بحيث تسقط المسؤولية عن المسلمين ، اذا تكفل بها من يكفى لسد حاجة المجتمع الاسلامي اليها ، مع أنها قد ينظر اليها باعتبار أنها أمور دنيوية ، وأنها لذلك بعيدة عن نطاق الدين وتوجيهه ، ولكن هذه النظرة ليست اسلامية ، حيث ان الاسلام قد جاء لينظم شئون الدنيا باعتبارها مقدمة لما يكون في الآخرة ، وباعتبار أن شخصية المسلم لا تنقسم بين ما هو أخروي وما هو دنيوي ، بل كل منهما يرتبط بالآخر على صورة تكامل بها شخصية المسلم دون تضارب أو انفصام . واذا أمكن تسمى بعض العلوم بالعلوم الدينية ، وأخرى بالعلوم الدنيوية ، فما ذلك الا باعتبار الصلة التي تربطها بالدين من كونها مباشرة أو غير مباشرة ، لا باعتبار أن بينهما انفصالا ، أو أن لكل منهما طريقة الخامس به الذي لا يسمع للآخر بالتدخل فيه أو الاتصال به ، ومن هنا يقول الغزالي : ولعمري انه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه ، بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا ، والملك والدين توأمان (٦) .

واذا كانت العلوم التجريبية في محيط الاسلام . علوما دينية بهذا الاعتبار فانها كذلك علوم دينية باعتبار كونها عملا يتقرب به الى الله تعالى ، فإن كل علم عمل ، فانه فعل مكتسب ، و ليس كل علما ، والطبيب يقدر على التقرب الى الله تعالى ، فيكون مثابا على علمه من حيث انه عامل الله سبحانه و تعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله ، فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ،

لامن حيث انه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب الى الله عزوجل بعلمه (٧) .  
**مبدأ العلم وغايته :**

والحقيقة ان هذه التقسيمات تقسيمات فرعية عقلية نشأت من تدقيق النظر و تعميق البحث ، ولها اعتبارها الكبير فى موضعها ، ولكن النظرة المبدئية الى العلم فى الاسلام كانت تمزج بين ماهو دنيوى ، وما هو دينى ، بغير اشعار بالتمييز أو التفريق الا ما كان من اعتبار العلم - مطلقا - مسيلة الى معرفة الله والتقرب اليه ، فما كان على هذا الأساس كان علما اسلاميا بمعنى أن الاسلام يفرضه وينيب عليه ، ويعتبره علما صحيحا مقبولا ، وما لم يكن على هذا الأساس لم يحظ بهذه المرتبة ، وان كان فى نفسه علما صحيحا مطابقا للحقيقة الواقعية ، ذلك لانه لم تكتمل له مرحلة الأخيرة وهى هدايته الى الله أو استعمال له فى سبيل الله .  
فشمولية العلم فى الاسلام تتبدى فى مثل قوله تعالى «وعلم آدم الأسماء كلها» البقرة ٣١ . وقوله تعالى «وكما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» البقرة ٢٣٩ . و قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» . النحل ٧٨ وقوله تعالى ، وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم» (البقرة ٢٤٧) وقوله تعالى «ومنكم من يرد الى اردل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» (الحج ٥) وقوله تعالى «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم» (غافر ٨٣) فهذه الآيات تذكر العلم بمعنى أعم من العلم الذى يتصل بالدين مباشرة ، وهناك آيات كثيرة مثلها ؟ وأخرى يمكن لمن يريد أن يقصرها على العلوم الدينية مباشرة فلم نذكرها ، وان كنا نفضل ان ننظر

اليها في ضوء مثل هذه الآيات العامة الا ما يدل على تخصيصه ، وهناك من الآيات ما يشير الى أنواع معينة من العلم خاصة تلك العلوم العملية التجريبيين مثل مما علمكم الله، (المائدة ٤) ومثل قوله تعالى «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، (يونس ٥) وقوله تعالى «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، (الانباء ٨٠) وقوله «يا ايها الناس علمنا منطق الطير وأوتنا من كل شيء ، (النحل ١٦) وآيات أخرى غيرها .

والآيات التي تحض على العلم بمختلف فنونه وألوانه ، أو بقسميه الشرعي وغير الشرعي على حد تقسيم الامام اغزالي كثيرة مشهورة خاصة تلك التي تحض على الرؤية وعلى النظر ، ولا نطيل البحث بذكرها (٨) .

لكننا عند مراجعتنا لمثل هذه النصوص القرآنية وما شابها من الأحاديث النبوية و أن تبين أن العلم الذي يتحدث عنه الاسلام يصدر عن مبدأ أساسي هو التوحيد ، أو هو الله جل وعلا ، وأن بناءه على هذا الاساس هو الذي يضمن له استقامته ، وسلامة قواعده و مبادلا ، وأنه اذا ابتعد عن هذا الاساس انحرف في اتجاهه وأسلم الى قواعد قد تكون صحيحة في ظاهرها ، لكن هذا الخلل المبدئى فى أساس يجعل باطن هذه القواعد غير مستقيم ، فهذه النصوص حينما تشير الى آيات الله الخلق بكل صورته وأشكاله وأنواعه تشير اليها فى محيط كونها من خلق الله وحده لا شريك له ، والى كونها على أحسن صنع وأتم خلق ، والى كونها على أحكم وأرق تدبير، و كل شيء عنده بمقدار، (الرعد ٨) «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء وموزون ، وجعلنا لكم فيها معاش من لستم له برازقين وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (الحجر ١٩ - ٢١) «وخلق كل شيء فقدره تقديرا (الفرقان ٢) يدبر الأمر من السماء وخلق كل شيء فقدره الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف

سنة مما تعدون ، ذلك الأرض ثم يعرج اليه فى يوم ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه، (السجدة ٥ - ٧) «الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، (الأعلى ٣ - ٤) «وصوركم فاحسن صوركم (غافر ٦٤) لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم»، (التين ٤) ثم أنشأناه خلقنا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، (المؤمنون ١٤) «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت»، (الملك ٣) ان ربك هو الخلاق العليم، (الحجر ٨٦) وغير ذلك من آيات كثيرة مختلفة الصيغ والأساليب .

كما تدلنا هذه الآيات وأمثالها الى أن وسائل تحصيل العلم بهذه المعلومات أو بهذه العلوم انما هى هبة ومنه من الله وحده ، فالسمع و البصر والفوائد والعقل والقلب وغيرها من آلات العلم والادراك والمعرفة كلها هبة ومنه من الله وحده .

وأن العلم الحاصل بها انما يرجع الى الله وحده فهو الذى «علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم»، (العلق ٤ - ٥) وهو الذى «خلق الانسان ، علمه البيان»، (الرحمن ٣ - ٤) وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى»، (طه ٥٠) .

فبداية كل علم وأساسه ينبغى أن يكون من هذه النقطة ، يستوى فى ذلك أن يكون هذا العلم علما شرعيا أو علما غير شرعى ، ولسوف نجد أن كثيرا من العلوم الحديثة (٩) . قد فرط فى هذا الاساس ، وأنه لذلك يتعثر فى كثير من مسائله وفروعه .

وكما دلتنا مراجعتنا لمثل هذه النصوص على المبدأ الذى ينبغى أن يكون للعلم فى نظر الاسلام ، فان مثل هذه المراجعة سوف تدلنا على الغاية التى ينبغى للعلم أن يقصد ليها ولقد أشارت آيات خلق آدم عليه السلام الى ذلك حين قال تعالى «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء و نحن نسيح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا



تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها، (البقرة آية ٣٠ - ٣١) . فالعلم بتحقيق الخلافة فى الأرض ، ومعنى ذلك أن تدبيرها واستعمارها والعمل فيها لله الذى استخلف الانسان فيها ، وأن هذا التدبير والاستعمار والعمل مبنى على هذا العلم الالهى ، الذى يستمد الانسان من الله ، وذلك كما عرفنا مرتبط بمبدئه ومادته ووسيلته ، وبهذا يصبح العلم مبدأ وغاية ، ومادة وأداة عمله رب العالمين ، وسوف نجد أن كثيرا من العلوم الحديثة قد غفلت عن هذه الغاية واستعملت العلم لتحقيق غايات أخرى مقطوعة الصلة بهذه الغاية العليا ، وأنها لذلك تودى الى غايات محبطة ، وتثمر فى النهاية ثمرا مرا .

وينبغى أن نلاحظ أننا حين ذكرنا المبدأ والغاية قد تخطينا مبادئ وغايات وسطى ، اختصارا للبحث وعلمنا أن هذه الوسائط من المبادئ والغايات سوف تنتهى فى آخر المطاف الى هذا المبدأ الأعلى ، وهذه الغاية العليا - انسانية العلم الهيته :

وهذه النسبة الالهية التى للعلم ، مبدأ وغاية ومادة ووسيلة ، لا تسلب من العلم انسانية ، وانما تحققها فى أعلى مستوياتها ، وانقى صورها .

ذلك لأنه اذا لم يستقر فى أساسه على هذا المبدأ الالهى ، فانه لا يمكن أن يستقر على مبدأ موحد أبدا ، بل لا بد أن تختلف عليه المبادئ ، تبعا لاختلاف العلماء فى عقائدهم وميولهم ، وتبعا لاختلاف الثقافات والبيئات ، بل أكثر من ذلك - تبعا للمذاهب السياسية المتقلبة ؛ التى يتحكم فيها - غالبا - هوى الحكام سواء كانوا فى صورة فردية أو فى صورة جماعية حسب نظم الحكم المختلفة ، بل ربما تتحكم فيها عواطف العالم والباحث نفسه فتلون بحثه وعلمه بلون خاص وصبغة خاصة بحسب ما يحب أو يكره - وبحسب ما يستحسن أو يستقبح ، الى غير ذلك من ألوان التحيز ، ولعل الأمثلة فى ذلك من الموضوع

بحيث نثير كثيرا من العجب ، فعلم النفسى مثلا حين يدرس فى الشرقى يدرس على أساس المبادئ الماركسية، ولكنه فى العالم الغربى يدرس على أساس مختلف ، وكذلك علم الاجتماع يدرس على أساس المبادئ الماركسية فى العالم الشيوعى ، ويدرس على أساس آخر فى العالم الغربى ، هما كذلك يدرسان فى هذين المعسكرين على أساس مبادئ تختلف عن تلك المبادئ التى يعرفها العالم الاسلامى ، والذي يستمدّها لامن فكر فلان ، ولا من هوى فلان ، ثم ان العالم الثامى الذى لم يستقل بعد بعلمه سوف يكون له دوره فى توجيه مثل هذه العلوم حين يتخلى من تبعيته العلمية لهذا المعسكر أو ذاك وفقا لاتجاهاته ومبادئه التى سيستقر عليها ، بل اننا نشاهد فى هذين العلمين من الثقلبات والتغيرات ما يتبع مزاج العلماء فى كثير من الاحيان ، وان كان ذلك لا يجردهما كلية فيها من حقائق علمية ثابتة .

ولسوف نجد كثيرا من النظريات التى نسبت الى العلم ، وهى فى الحقيقة نظريات عرقية وعنصرية ، تستخدم العلم لفرض نتائجها ، وتحقيق آثارها وفقا لمبادئ سياسية أو مطامع اقليمية .

ولا يصح أن يقال ان العلوم المادية التى تخضع للتجربة والملاحظة وتكرار المشاهد بعينها كلما تكررت التجربة ، لا يقع فيها مثل هذا الخلط وهذا الالتباس ، بل قد يقع فيها مثل ذلك ، وكم ظهرت أمور تبين منها كيف زيف بعض العلماء بعض الاحصائيات وما يترتب عليها من نتائج توصلنا الى ترسيخ فكرة معينة أو مبدأ معين حتى ظهر زيفها أوظهر - على الأقل - عدم اعتمادها على أساس صحيح وذلك مثل النظرية الدارونية والنظرية الفرويدية ، (١١) وكالنظريات التى يريدون اشاعتها اليوم بين المسلمين خاصة والبلاد النامية عامة عن تكاثر السكان ووقوع كارثة انسانية بناء على قصور الموارد . (١٢)

واختلاف المبادئ الذى يؤثر فى اختلاف العلوم واضطرابها لايساعد

على أن تصبح هذه العلوم عاملا على جميع الانسانية وتأليفها ، والارتفاع الى أفق الكرامة التي هيأها لها الخالق جل وعلا ، ومن هنا كانت الهية المبادئ التي تبنى العلوم على أساسها عاملا مهما في أن تكون هذه العلوم ما انسانية بمعنى أن تكون عامل ألفة ومودة وسلام بين بنى البشر .

وكما يقال ذلك بالنسبة للمبادئ يقال مثله وأكثر منه بالنسبة للغايات ، خاصة تلك الغايات العليا ، التي تتجاوز تلك الغايات الوسيطة ، فالاختلاف في الغايات الوسطى لاضير فيه ولا ضرر منه ، مادام محكوما في النهاية بغاية عليا ، وإذا كانت الغاية العليا التي تحكم هذه الغايات الفرعية - غاية الهية كما حدها الله ورسوله فان كل الغايات الوسطى سوف تتعاون وتتكامل ليصبح المجتمع الانساني موحد الهدف موحد المشاعر ، مترابط الافكار والعواطف مع تنوع أنواع النشاط ، وتشعب سبل العمل ، وازدهار عوامل التقدم والرقى ، دون أن يجد هذا التنوع في النشاط وميادين العمل ، ووسائل الازدهار تعارضا أو تناقضا ، ودون أن يبذر بدور الشقاق والخلاف والعداوة ، ودون أن يثير عوامل الانانية والاثرة ، والتعالى والاستكبار ، ذلك لأن الغاية الأخيرة ، أو الغاية العليا تقوم بالتنسيق بين مختلف الغايات الفرعية ، أو الغايات المحلية والاقليمية والعرقية .

أما اذا اختلفت تلك الغاية العليا ، أو اختلفت وراء زحام الغايات المحدودة ، فمن المتوقع أن تصبح الغايات مختلفة باختلاف القبائل والشعوب والأمم ، وأن تختلف تلك الغايات في الشعب الواحد بين أفراده وأن يعقب هذا الاختلاف في الغايات اختلافا في وسائل تحقيقها وتحصيلها والوصول اليها وأن يقع في المجتمع الانساني من التعارض والخلاف بقدر ما بين هذه الغايات المحدودة من التعارض والخلاف ، وأن تتدخل عوامل الأناية والأثرة الفردية والعرقية لتثير نيران العداوة والبغضاء ، خاصة اذا تدخلت الاهواء الشخصية والنعرات السياسية لتحدد أهوافا وغايات لا تراعى فيها غير نطاق محدود ، واطار

ضيق يمليه ضيق أفق الانسان من حيث هو انسان ، وقصر نظره الذى تمليه عليه حدود الزمان وحدود المكان ، وحدود الذاتية القاصرة التى تتعالى وتستكبر فى الأرض بغير الحق .

ولو قلبنا النظر فى معظم ما ينتجه العلم اليوم لوجدنا حظ الفكر والروح فيه قليلا ، و لوجدنا للناحية المادية فيه حظا جزيلا .

فاذا أردنا أن نلقى نظرة على تلك العلوم التى تهتم بالجانب الفكرى والروحى وجدنا أنها متأثرة كل التأثر بتلك الغايات المحدودة المختلفة ، ولاشك أن القارىء يوافقنى على أن الاسلام كدين له جوانبه الفكرية والروحية العميقة قدعانى ومازال يعانى من تلك البحوث الغربية التى خطط لها فى ضوء أفكار وغايات استعمارية وصليبية وصهيونية والحادية عاتية ، وأن صورته لازالت تعانى من التشويه والتزييف حتى بين أبنائه وشعوبه الذين ورثوا الاسلام كابرا عن كابر .

وإذا انتقلنا الى العلوم المادية وهى فيما يظن بعيدة عن التأثر بمثل هذا الاختلاف فى الغايات وجدنا أنها لاتخلو من مثل هذا التأثير اما بطريقة مباشرة واما بطريقة غير مباشرة ، بطريقة مباشرة كما اذا أريد تصدير معلومات زائفة الى الآخرين بغية الاحتفاظ والاستئثار بعناصر التفوق والغلبة المادية ، ويشمل ذلك كثيرا من فروع العلم حتى فى مجالات الصحة البدنية والنفسية ، لا فى مجال استخدامات الاسلحة الحربية فحسب ، وبطريقة غير مباشرة كما يحدث بعد البحوث التجريبية نفسها فى اثناء عمليات التحليل أو التركيب ، وخاصة فى الناحية التطبيقية ومحاولة فرض نتائج قد تصلح لفرض محدود على شعوب وأمم ليس لهم فى هذا الفرض مصلحة ، وانما يقعون فيه فريسة لتحقيق اغراض شعوب أخرى ، اقتصادية أو عسكرية أو سياسية .

وليس أقل من أن العلم يتقدم فى هذه المسائل العرضية المادية ، ويهمل اهمالا يكاد يكون كاملا جوهر الانسانية فى الانسان ، ولذلك ينهمك فى كثير من

التفريعات والتقسيمات التي توغل بالعلم فى المادية الخالصة وتجعل يفغل الهيكل الكلى الذى يجمع فى اطاره كل هذه التفريعات والتقسيمات ليوطر الشخصية واملامح الانسانية السامية .

ولقد انحرفت العلوم المادية بناء على هبوط مستوى الغايات التى تنهدف اليها لكى تصبح وسيلة من وسائل الدمار ، فى الوقت الذى تعمل فيه لكى تكون وسيلة من وسائل البناء والاعمار ، وأصبحت هذه مشكلة المشاكل فى الحضارة الغربية الراهية التى تعمل من أجل رفاهية الانسانية وتقدمها ، وهى بهذا العمل عينه تتبنى عوامل هدمه وتحطيمه وابدائه ، نظرا لتلك الغايات الأنانية ، واستعمال العلم المادى لتحطيم معنويات الآخرين سلاح يمكن أن يرتد ، لان الاشقاء الانسانية فى جانب من العالم لايمكن أن يظل بمعزل عن التثأير حتى فيمن كان يعمل عليه و يجتهد فيه .

ولسنا نريد أن نتعرض الى مدى الثقة التى يستحقها العلم المادى التجريبي ، فانه يكفيننا منه أنه يعترف بانه علم تقريرى وصفى ، يعتمد على الظواهر دون حقائق الأمور وكنهها ، وانه لذلك نسبى غير مطلق ولا أبدى وأنه علينا أن نستفيد منه على ما هو عليه ، لأن هذا هو ما يدخل فى وسعنا وطاقتنا ، لكنه اذا أضيف الى ذلك وضعه فى خدمة هذه الاعراض والغايات المحدوده كانت نتائجه من حيث حقائقه التى يتوصل اليها أو تطبيقاته التى يستخدم فيها مفيدة لأصحابها فى تحقيق أعراضهم وغاياتهم ، ولكنها ضارة بالانسانية فى مجموعها ، محطمة لحضارة الانسان ومدنية فى حصيله هذا النشاط العلمى الواسع .

ويخرج الانسانية من مأزق هذا التناقض بين بناء الحضارة بالعلم وهدمها بالعلم ، أن تتناسق كل هذه الغايات فى اطار الغاية العليا ، وهذه الغاية العليا هى ما حدود الله للانسان على هذه الأرض ، بهذا وحده يمكن أن تتحقق للعلم انسانيته ، والا توزعتهم الغايات المختلفة ، والاهداف المتضاربة .

## العلم عبادة :

بهذا الاعتبار يكون العلم ، بكافة فروعها شرعية وغير شرعية . علما دينيا و يكون طلبه وتعلمه عبادة من العبادات ، بل يكون عبادة من أكثر العبادات قدرا عند الله . فاذا تجرد من مثل هذه الاعتبارات فقد أصبح علما دنيويا ، حتى ولو كان من علوم الشريعة .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي :

«ان علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجليه حقائقه ، غاية ما هنالك أن علوم الطبيعة تحتاج دراسات أطول أما العلم بالدين فميسور لمن أخلص له أياما معدودات .

وإذا كان التوسع فروع الشريعة يحتاج مددا فسيخة ، فهذا التوسع وظيفة اجتماعية كسائر الوظائف التي تستكثر منها الدولة أو تستقل وفق المصلحة التي تنجح رسالتها العليا .

وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف في ذاتها من دراسة الطب مثلا ، ولو بلغ صاحبها مبلغ أبي حنيفة ، وإنما يرجح الرجل صاحبه في علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم لنفع الناس ابتغاء وجه الله ، وانتظار ما لديه من مثوبة . ان الحاجز بين ما هو دين محض ودنيا محضة يرق ويكتف بحسب النية ، وسلامة القصد ونبل الغاية» (١٣).

فهو بهذا الاعتبار عبادة، وهو من حيث هو مأمور به من قبل الله تعالى عبادة. وهو بهذه الاعتبارات كلها من أفضل العبادات ، وفي حديث الترمذي عن كثير بن قيس قال : رجل من المدينة على أن ابى الدرداء وهو بدمشق ، فقال ما أقدمك يا أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أما جئت لحاجة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : ما جئت الا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع  
أجنحتها رضا لطالب العلم ، وان العالم ليستغفرله من فى السموات ومن فى  
الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر  
الكواكب ، ان العلماء ورثة الأنبياء ، ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما  
ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر.(١٤)

وتوجد أحاديث كثيرة أخرى فى فضل عبادة العلم ، ويكفى مانوه القرآن  
الكريم به من فضل العلماء فى مثل قوله تعالى «شهد الله أنه لا اله الا هو  
والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط» آل عمران ١٨ ، وقوله تعالى «قل هل  
يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» الزمر ٩ ، وقوله تعالى «انما يخشى الله  
من عباده العلماء» فاطر ٢٨.

أخلاق العلم تستمد من هذه الاعتبارات :

فى اطار هذه الاعتبارات تكونت أخلاقيات العلم فى الاسلام . واصبح  
لهذه الاخلاقيات من التقدير والاحترام والتمسك والالتزام ما كان لاصولها من  
هذه الاعتبارات .

ولسنا نريد أن نسترتسل فى بيان هذه الاخلاق فى جانب المعلم والمتعلم،  
وهناك كتب متعددة من التراث الاسلامى تعتنى بهذه الناحية عناية فائقة و تعتبر  
من كتب التربية الاسلام الاسلامية ، ولكننا نريد أن نتحدث عن الاخلاق العامة  
التي لا بد منها حتى تتحقق للعلم انسانية .

واذا كانت هذه الاخلاق التي سنتحدث عنها مستوحاة من هذه  
الاعتبارات السالفة ، وهى ذات صبغة اسلامية خالصة فانها تصلح فى حد ذاتها . و  
يصرف النظر عن هذا الاطار . لكى تكون دستورا للعلم وللعلماء ، ولكى تقد العلم  
المادى الحديث من هذا المأزق الحضارى الذى يبنى فيه بيد ثم يهدم باليد  
الأخرى أكثر مما بناه ، ذلك أنه يبنى من جانب المادة يساعد فى وجهه الآخر

على هدم الناحية الانسانية فى الانسان ، مع اعلانه صباح مساء انه يقوم باكتشافاته  
وابداعاته لخدمة الانسان .

وأول هذه القواعد الأخلاقية : الحرية

وليست الحرية أن توجد بحيث يمكن لك أن تختار ، و انما بحيث  
تمارس فى نفسك و فكرك وعملك هذا الاختيار ، فتكون الحرية مسألة ذاتية  
وجدانية أكثر من أن تكون مسألة بيئية خارجية ، ووجود الفضاء حولك لا يعنى  
أنك تتحرك فيه ، ولكن حركتك فيه تعنى أنك تستفيد بحركتك من وجود هذا  
الفضاء . وحريرتك التى تتبع من ذاتك فتسيطر على ميادين نشاطلاء بما فى ذلك  
ميدان العلم يجعلك تحترم حرية الآخرين ، وبذلك البحث والعلم حرا لا التزام فيه  
لشيء الا ما يمليه على العالم وجدانه وفكرة وعلمه .

ولقد كان ذلك من أول ما نادى به الاسلام حيث طلب من الناس أن  
يتحرروا من ربة التقاليد والاعتقادات والفرضيات التى لاتستند الى عقل أو الى  
حقيقة أو الى واقع ، ونعى على المقلدين والكسالى الذين لا يريدون أن يمارسوا  
حريرتهم باستعمال عقولهم وضمايرهم وباستعمال آلات البحث والعلم التى وهبها  
الله لهم ، وباستعمال المواد التى خلقها الله لهم لينظروا ويبحثوا ويدرسوا .

فيقول سبحانه وتعالى «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما  
آلفينا عليه آباءنا أو لو كان أبؤهم لايعلقون شيئا ولا يهتدون » البقرة ١٧٠ ،  
ويقول « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو  
كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » لقمان ٢١ ، ويقول « واذا قيل لهم تعالوا  
الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان أبؤهم  
لايعلمون شيئا ولا يهتدون » المائدة ١٠٤ ، ويقول « وكذلك ما أرسلنا من قبلك  
فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة واما على آثارهم  
مقتدون » الزحرف ٢٣ .



فالعصية الجاهلية للجنس واللون والمواريت الفكرية والحضارية التي تستند الى علم صحيح من المعوقات التي تنحرف بالعلم وتضلل أهله ، والتي ينبغي أن يتحرر العلم والعلماء منها في كل فروعه ومسائله عامة ، وفي الاصول الاساية التي تمس صميم حياة الانسان من حيث هو انسان - خاصة .

ولذلك يهيب القرآن بالانسان أن يستعمل هذه بنفسه فيما يتيسر له من شئون العلم وينادى به أن ينظر في كل شيء يمكن أن ينظر فيه لا أن يقف جامدا بليدا مكتفيا بما تيسر له أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» الاعراف ١٨٥، قل انظروا ماذا في السموات والأرض» يونس ١٠١. ثم يشير الى أشياء محدودة بعينها كما في قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فلك يسبحون» الأنبياء ٣٠ - ٣٣ وقوله تعالى « ألم يروا الى الطير مسخرات في السماء » النحل ٧٩ أولم يروا الى الطير فوقهم صافات وليقبضن» الملك ١٩ وقوله تعالى« قل سيرو في الأرض فانظروا كيف الخلق» العنكبوت ٢٠ ، وقوله « فلينظر الانسان الى طعامه» عبس ٢٤ وقوله فلينظر الانسان مم خلق» الطارق ٥ وقوله أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت» الغاشية ٧ . والآيات في هذا المجال كثيرة متنوعة ، والمقصود بهذه الأمثلة هو ان الاسلام يريد أن يحرر الانسان لامن التقاليد حوله فحسب ، بل من نفسه بحيث يستعمل هذه الحرية في البحث والنظر وتحصيل العلم بصورة مطلقة لا قيد عليها من خارج نفسه ولا من داخلها .

### القاعدة الثانية : الحق والابتعاد عن الظن

فاتباع الحق والنظر اليه والعمل من أجل التوصل اليه هو الذى يقود البحث العلمى فى طريقه المستقيم ، ويقيه مزلق الانحراف ، ومهادى الضلال أما الى الحق مرة ، والغفلة عنه أخرى ، أو العمل بغير نظر الى الحق مطلقا ، فان ذلك لابد أن يودى الى اضطراب النتائج العلمية ، أو اتخاذها مسلكا لا يتفق مع الفطرة الانسانية ويسوقها فى النهاية الى فى الوقوع فى حماة الباطل أو التردى فى متاهة الضلال .

كما أن الاكتفاء بنصف الطريق والاعتماد على الفروض والتخمينات والظنون وحدها بغير تحقيقها والوصول الى غاية الحق فيها يودى الى النتائج السيئة التى أشرنا اليها .

ولقد بين لنا الاسلام أن كل شىء فى ملك الله سبحانه وتعالى قائم بالحق وأنا لكى نتعرف الى ملك الله أو الى أى شىء فيه لابد لنا أن نعتد فيه على الحق وحده ، وأن اتباعنا للحق فى أى شىء ندرسه سوف يقودنا الى الحق المبين وهو الله سبحانه كما يقول تعالى ويعلمون أن الله هو الحق المبين « النور ٢٥ أما أن كل شىء فى ملك الله سبحانه وتعالى قائم بالحق فقد اعلنه الله فى مثل قوله . وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق » الانعام ٧٣ ، قوله « ما خلق الله ذلك الا بالحق » يونس ٥ ، وقوله ، « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق » الحجر ٨٥ .

وأنه سبحانه ما أرسل رسله ولا أنزل كتبه ، ولا شرع شرائعه الا بالحق ، « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق » النساء ١٠٥ ، كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق .. البقرة ٢١٣ .

ولذلك كان الأمر بالتزام الحق فى كل الامور ، والامر بعدم اتباع الظن ، أو الاعراض عن دلائل الحق أو التقول بالباطل فيما اتضع فيع وجه الحق ، ليحق

الحق ويبطل ؛ ، الانفال ٨ .

أما التزام الحق واتباعه ففي مثل قوله تعالى « فاحكم بين الناس بالحق » ص ٢٦ ، وقوله « والله لا يستخى من الحق » الأحزاب ٤ ، وقوله « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر ٣ .

وأما عدم اتباع الظن ففي مثل قوله تعالى ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، يونس ٣٦ ، وقوله « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » الانعام ١١٦ وقوله « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » الجاثية ٣٢ ، وقوله « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » الجاثية ٢٤ ، وقوله يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن « الحجرت ١٢ ، وقوله « وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » النجم ٢٨ .

وأما عدم الاعراض عن دلائل الحق ففي مثل قوله تعالى « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » الانبياء ٢٤ ، وقوله « لقد جنناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » الزخرف ٧٨ ، وقوله سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق « الاعراف ١٤٦ .

وأما عدم التقول بالباطل ففي مثل قوله تعالى ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق « المائدة ١١٦ ) وقوله « ولا تقولوا على الله الا الحق » (النساء ٧٨) وقوله « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق » (الاعراف ٦٩) - وبعد ذلك كله فماذا بعد الحق الا الضلال » (يونس ٣٢) .

#### القاعدة الثالثة: التجرد عن الهوى

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » (المؤمنون ٧١) ذلك لأن الهوى يختلف من فرد الى فرد ، ومن أمة الى أمة ، بل يختلف باختلاف المزاج ، وهو قلب لا استقرار له ولا ثبات ، وعندما يتدخل في المسائل العلمية فانه يوجهها بما يتفق مع اتجاهاته المتقلبة ، فلا يثبت

علم ، ولا يستقر حق .

والهوى يعتمد على الحب والكراهية والغضب والرضا ، والحاجة الى الآخرين أو التعالى عليهم ، والرغبة فى أعراض هذه الحياة من الدنيا من ثروة أو جاه . أو نفوذ أو شهرة أو غير ذلك ، ومن الممكن تسخير العلم لتحقيق شىء من ذلك ، ولا شباع بعض هذه العواطف أو هذه الميول ، لكنها عندئذ تكون قد انحرفت عن القاعدة السابقة وهى ابتغاء الحق وحده بصرف النظر عن الرغبات الخاصة ، الفردية ، أو القومية ، فاذا اتبع العلم الهوى ، كان افساده أكثر من اصلاحه ، وكان تخريبه وتدميره أكبر من بنيانه وتعميره ، ولذلك كان النهى عن اتباعه فى كل الامور لازما وفى ميدان العلم على وجه الخصوص أكثر لزوما .

وكثيرا ما وضع العلماء الفروض وسخروا الأداة العلمية لتحقيقها والتوصل اليها لأنها تنفق مع ميولهم ، وتنسجم مع أهوائهم ؛ فلما ذهب سلطانهم وتغيرت دولة نفوذهم وخلفهم على البحث آخرون أظهروا زيف ما حققوه ، وهدموا ما كانوا قد بنوه ، ووضعوا فرضا جديدا ، وتحقيقا جديدا ، وفى ذلك من تعويق التقدم العلمى ما فيه ، فوق ما فيه من تضليل و تزيف لا يلىق .(١٥)

لذلك كان نهى الاسلام عن اتباع الهوى فى مثل قوله تعالى : فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، النساء ١٣٥ ، وقوله « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ص ٢٦ . وقوله « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » القصص ٥٠ ، وقوله « وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم » الأنعام ١١٩ وقوله « بل أتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » الروم ٢٩ ، وقوله « أقمن كان على بينه من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواهم » محمد ١٤ .

ومن مثل هذه الآيات يتبين لنا أن الاسلام يعتبر أن الهوى آفة العلم ، وأن ما يأتى عن طريق الهوى لا يكون علما صحيحا ولا مقبولا وانه لذلك يجب أن نرفض كل ما يأتى به الهوى سواء كان هوى شخصا أو كان هوى الجماعة

المحيطة ، ولا تتسع أهواء الذين لا يعلمون» الجاثية ١٨ ، «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » المائدة ٧٧ .  
 واتباع الهوى فى العلم يثير العداوات ويشعل نيران البغضاء لمتعارض  
 الاهواء واختلافها فوق ما فيه من تزييف العلم وتضليل العقول.

#### القاعدة الرابعة: الأمانة وتكامل المنهج

وليست الأمانة قاصرة على نسبة الافكار والعلوم لأصحابها فحسب،  
 ولكنها تشمل عمل العالم نفسه فى بحثه وحكمه، وفى تحريته واستنباطه، ذلك لأن  
 الناس تعتمد على العلماء فى ميدان علمهم ، فىأخذون أحكامهم واستنتاجاتهم  
 مأخذ الثقة والتقدير ثم يبنون عليها آرائهم الشخصية أو تصير فاتهم الخاصة  
 والعامه فى شئون فكرهم وثقافتهم وصحتهم وتجارتهم ، وبنائهم ، وحلمهم  
 وترحالهم ، وغير ذلك من شئون الحياة ، ذلك يضع على كاهل العلماء مسئولية  
 الأمانة فى أن يتحروا فى بحوثهم وفيما يقدمونه للناس من نتائج هذه البحوث ،  
 الدقة والصحة من جانب ، وما يغير الناس ويجلب اليهم النفع دون ضررما ، أو  
 بأقل ضرر يمكن ، بحيث ترجح الفائدة على المضرة ، وبحيث لا يهدم فى الانسان  
 انسانيته، ولا يفسد علاقاته أو اخلاقه وبحيث لا يضلله ولا يخدعه ولا يلبس الحق  
 بالباطل ، وبحيث لا يطلق حبل الامانى الكاذبة والاحلام التى تعطل عقله وفكره ،  
 وتزييف عاطفته ووجدانه وهلاعب بأهوائه وخيالاته ، و تثير فيه أدنى الغرائر وأعتهاها  
 ولذلك كان المنهج المادى البحث منهجا أعرج ، لانه يتجاهل الجوانب  
 الأخرى فى الانسان ، ذلك لان قوانين المادة قابلة للتطبيق فى مجال المائدة  
 الجامدة فقط ، أما تطبيقها على الانسان ، فلا يمكن أن يكون تطبيقا كاملا ، لانه  
 ليس مادة خالصة ، كما أن مادته ليست منفصلة عن بقية مكوناته كإنسان حتى  
 يمكن الاقتصار عليها عند التطبيقات المادية .

ومن الأمانة اذن أن يعطى لكل ذى حق حقه ، فيعطى للمادة حقها من

المنهج المناسب لها ، ويعطى للانسان حظه من المنهج المناسب له ، وعندئذ يتكامل المنهج الذى يحقق للانسان انسانيته فى محيط المبدأ والغاية السليمة .  
ولذلك نجد القرآن ومنهج الاسلام التشريعى والأخلاقى فى اطار العقيدة العليا نشتمل على المنهج المتكامل وتخطب الانسان بهذا المنهج وترشده اليه فى كل أموره دنيوية أو أخروية ، فردية أو اجتماعية ، علمية أو فنية ، فلا تكاد تجد آية الا وهى تجمع بين الناحيتين ، حتى فى الجزء الاخرى الذى يعيبه بعض المقرضين على الاسلام يزعم أنه يتحلث عن الثواب والعقاب الماديين ، مع أنه مما يرين الاسلام وأهله ، أنه لا يهمل جانباً من جوانب فطرته الا ويعطيها حقها بطريقة متكاملة غير منفصلة عن باقى جوانبه .

والاسلام لهذا يحرم الغش والخداع والسحر والكهانة والشعوذة وتلبس المسائل تضليلاً للناس ، وإبتغاء الفساد فى الأرض .  
والآيات فى ذلك كثيرة نكتفى منها . كما فعلنا من قبل بأمثلة تدل على المراد .

يقول سبحانه وتعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» البقرة ١٠٢  
ويقول وَاَلَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ لَيُرَدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» البقرة ١٠٩ ، ويقول : « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا الْحَقُّ» البقرة  
ويقول «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ لَيُرَدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» البقرة ١٠٩ ، ويقول « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» البقرة ٢٠٥ ، ويقول : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ» ، ويقول : «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» البقرة ٦٠ ،

وآيات أخرى متعددة ، ويقول : « والله يعلم المفسد من المصلح » البقرة ٢٢٠ ،  
ويقول تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ،  
القصص ٨٣ ، ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا  
كتاب منير ، ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله » الحج ٨ - ٩ ، ويقول « قل يا اهل  
الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وانتم شهداء » آل عمران  
٩٩ ، ويقول الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله  
ويبغونها عوجاً ، ابراهيم ٣ ، ويقول « ولا يفلح الساحرون » يونس ٧٧ ، ويقول « انما  
صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .. » طه ٦٩ ، ويقول « كذلك يضرب  
الله الحق والباطل فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض  
كذلك يضرب الله الامثال » . الرعد ١٧ .

ويمكن أن نستأنس هنا ببعض الاحاديث الشريفة يقول صلى الله عليه  
وسلم فيما رواه الطبراني : ما أكتب مكتسب مثل فضل غلم يهدى صاحبه الى  
هدى أو يردده عن ردى وما استقام دينه حتى يستقيم عقله .  
ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن أبى أمامة الباهلى :  
ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى  
جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير .

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبى هريرة : اذا مات ابن  
آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح  
يدعوله .

#### القاعدة الخامسة : الصدق وتجنب الجدل

وللصدق فى العلم خطورته التى لاتدانيها خطورة خاصة فى هذه الايام  
التى ظهرت فيها علوم خاصة بالاعلام وكيفية التأثير على الرأى للعام وتكوينه  
وتوجيهه ؟ ولقد أصبح هذا العلم بفروعه المختلفة قادراً على تحطيم دول وأقامه

أخرى ، واشعال الحروب واخمادها ، وبناء مبادئ وهدمها فاذا سيطرت عليه ووجهته نفوس خربة غير عامرة بالصدق فان آثاره التي تحيق بالانسانية تكون بعيدة المدى عميقة الضرر ، ومن هنا لم يكن الصدق مجرد مطابقة الخير للواقع بل ينبغي أن يكون في هذا المجال مطابقة الحكم والعمل لمقتضى الحال ، بأن يكون العالم صادقا بادية ذى بدء مع نفسه ، ومع انسانيته ، ومع مبادئه التي يختارها بمقتضى هذه المبادئ من حرية وحق نفسه ، وحق وتجرد .

فان صدق العالم مع نفسه ضرورى حتى يكون بحثه وعلمه فى نفع الانسانية و تقدمها ، وفى بناء الحضارة وازدهارها ، واذا كان هناك تعارض أو تناقض بين بحثه وبين أعماق نفسه فانه يصبح ممزق الشخصية ، ومحظم المعنويات ، وعندئذ لايبالى خلال بحثه بما يتفق مع خير الانسانية وسلامها ، وأمنها ورفاهيتها ، لأنه لايشعر مع نفسه بالسلام والاطمئنان .

ومثل هذا الشعور يدفعه دائما الى المكابرة والجحود والمجادلة بالباطل مما يضع معه الحق ، وتنطمس معالم الحقيقة ، ولاتكاد تجد صادقا يميل الى كثرة المرء والجدال ، كما انك لا تكاد تجد كاذبا ينحجوم رذيلة الممارسة وتلبس الحق بالباطل ، ولاشك أن ذلك لايساعد على تقدم العلم وازدهاره فوق أنه يتسبب فى تضليل الناس وحيرتهم ، وبذر عوامل الشك والريبة فى نفوسهم ونزع عوامل الطمأنينة والاستقرار من بينهم .

وتؤكد مرة أخرى على ذلك المارد الجديد من انتاج العلم الحديث ، وهو علوم الاعلام التى تطورت فى هذا العصر الى درجة مذهلة بحيث أصبحت تسيطر على ضمير الفرد ووجدانه لتشكله وتوجهه ، فاذا لم تلتزم بالصدق النابع من نفس صادقة أمينة كان خطرهما داهما وأثرها مخربا .

ولست بحاجة الى كان أشير الى أن الاسلام يعانى من تحيز وسائل الاعلام الغربية التى تسود العالم اليوم حيث لاتتحرى الصدق فى المواد التى



تقدمها ، على أننا لا نقصد بذلك أن ندافع عن فكرة معينة ، ولا مبدأ خاص ، لأن  
الاذى الذى يصيب الانسانية من ذلك أعم من أن يصيب مبدأ هنا أو فكرة هناك ،  
انه تخريب للنفوس وتشويه للضائر ، وتريف للمشاعر ، وتحطيم للانسان .  
وينظر الاسلام الى انكار الحق ومكابرته والممارسة فيه على أنه كذب على  
الله ، وكذب على النفس ، وكذب على الناس ، ويحذر من ذلك كل التحذير بل  
يحذر حتى من الممارسة بالحق ، فما بالكم اذا كانت الممارسة بالباطل .

يقول تعالى : « انظر كيف كذبوا على أنفسهم » الانعام ٢٤ ، ويقول :  
« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا الله وجوههم مسودة » الزمر ٦٠ ، ويقول : « فمن اظلم  
من افترى على الله كذبا » الاعراف ٣٧ ، وفي سورة أخرى ، ويقول : « ان الذين  
يفترون على الله الكذب لا يفلحون » النحل ١١٦ ، أما بالنسبة للجدال والممارسة  
فيقول جل ذكره : وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم » (الانعام ١٢١)  
ويقول : « ويجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » (غافر ٥) .

وقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث أبى أمامة قول رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، وتماروا به السفهاء ، ولتصرفوا  
به وجوه الناس اليكم ، فمن فعل ذلك فهو فى النار .

#### القاعدة السادسة : أليان والأداء

وهذا حق الانسانية على العلماء ، فحين تتحقق كل هذه الاخلاقيات لدى  
العالم يصبح لزاما عليه حقا أولياً لله ، وحقا بعد ذلك للناس أن يبين للناس ما  
علمه الله ، وأن يؤديه اليهم على وفق هذه القواعد .

ذلك لان العلمن من الله واليه مبدأ وغاية ، ومادة ووسيلة ، وكنتمانه عن  
أهله وعن يستفيدون به خيانة لهذا المبدأ ، واهدار لهذه الغاية وتضييع لهذا  
الجهد ، وليس بصاحب حق مستقل فيه ، لان العلم والعلوم ليس خاصا به وحده ،

ولهذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه. آل عمران ١٨٧ ، وينهى عن كتمان الحق وكتمان العلم في مثل قوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. البقرة ٤٢ ، ويوجب من فضل ذلك بقوله « لم تلبسوا الحق بالباطل و تكتمون الحق وأنتم تعلمون» آل عمران ٧١ ، ويظهر لهم عظيم جرمهم ، وسؤ عاقبتهم بمثل قوله ان « الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويفترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » البقرة ١٧٤ .

ولو أن علماء اليوم التزموا هذه القاعدة وجعلوا العلم ، نظريا و تطبيقيا ، حقا مشاعا بين الأمم ، ولم يجعلوا احتكارا لطائفة دون أخرى ، ولشعب دون شعب ، لما وقع عالم اليوم فريسة الجوع والفقر والمرض ، ولما وقع فريسة الخوف والهلع والقلق ، ولسارفى العالم روح من التعاون والاخاء والتكافل ، مهما اختلفت الآراء والاتجاهات ، ومهما اختلفت الاديان والألوان ولعم السلام ربوع المعمورة كما أراد الله وكما دعا : « والله يدعو الى دار السلام و يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» (يونس ٢٥) .

وبعد ، فاذا كانت هذه الاخلاقيات من أخلاقيات العلم فى الاسلام بحكم الاطار الذى يحيط بها من المبدأ والغاية فانها يمكن أن تكون دستورا للعلماء ، من مختلف الملل والنحل بصرف النظر عن اطارها الاسلامى ، ونحن فى مطلع القرن الخامس عشر الاسلامى نقدمها لعلماء العالم لتكون هدية الاسلام لهم فى مطلع هذا القرن بين هداياه العديدة التى تسعد الانسانية وتتشرف الى أفق أرحب واوسع ملء بالآمال من أن تنعم الانسانية فى ظلال العلم بمعرفة الحق والتزامه والتعاون عليه ومن أجله حتى يعم الرجاء ويسود السلام .

★★★★★★